

242264 – معنى قوله تعالى : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ).

السؤال

ما تفسير قوله تعالى : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) في سورة الأنعام ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

يقول الله عز وجل : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/ 108 .

نهى الله سبحانه المسلمين عن سب آلهة المشركين التي يعبدونها من دون الله ، مع أنها باطلة ؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلى سب المشركين الإله الحق سبحانه ؛ انتصارا لآلهتهم الباطلة ، ومعاملة للمسلمين بمثل ما قالوا .
ثم أخبر أنه سبحانه زين لكل أمة عملهم ، ثم يردهم إليه جميعا يوم القيامة ، فيخبرهم بما عملوا ، ويحاسبهم على أعمالهم : إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

قال ابن كثير رحمه الله :

" يَقُولُ تَعَالَىٰ نَاهِيًا لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنِ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ ، إِلَّا أَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْهَا ، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .
كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، لَتَنْتَهِينَ عَنْ سَبِّكَ آلِهَتِنَا ، أَوْ لَنْهَجُونَ رَبَّكَ ، فَنَهَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْلِيَانَهُمْ ، (فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)
وَقَالَ قَتَادَةُ : كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أَصْنَامَ الْكُفَّارِ ، فَيَسُبُّ الْكُفَّارُ اللَّهَ ، عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) .

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ – وَهُوَ تَرْكُ الْمَصْلَحَةِ لِمَفْسَدَةٍ أَرْجَحَ مِنْهَا – مَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ) .

قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ : (يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ) . أَوْ كَمَا قَالَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ) أَي : وَكَمَا زَيْنًا لِهَوْلِ أَلَاءِ الْقَوْمِ حُبِّ أَصْنَامِهِمْ وَالْمُحَامَاةِ لَهَا وَالْإِنْتِصَارَ ، كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّمِ الْخَالِيَةِ عَلَى الضَّلَالِ عَمَلُهُمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ ، وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِيمَا يَشَاؤُهُ وَيَخْتَارُهُ .

ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ) أَي: مَعَادُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ.

(فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أَي: يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ " انتهى من " تفسير ابن كثير " (314 /3) .
وقال القرطبي رحمه الله :

" نهى سبحانه المؤمنين أَنْ يَسُبُّوا أَوْلِيَانَهُمْ ، لِأَنَّهُ عِلْمٌ إِذَا سَبُّوهُا نَفَرَ الْكُفَّارُ وَازْدَادُوا كُفْرًا .

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: حُكْمُهَا بَاقٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَمَتَى كَانَ الْكَافِرُ فِي مَنَعَةٍ ، وَخِيفَ أَنْ يَسُبَّ الْإِسْلَامَ ، أَوْ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَوْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَجِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَسُبَّ صُلْبَانَهُمْ وَلَا دِينَهُمْ وَلَا كَنَائِسَهُمْ ، وَلَا يَتَعَرَّضُ إِلَى مَا يُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْبُعْثِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ " انتهى من " تفسير القرطبي " (61 /7) .

وقال السعدي رحمه الله :

" ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزا ، بل مشروعاً في الأصل ، وهو سب آلهة المشركين ، التي اتخذت أوثاناً وآلهة مع الله ، التي يُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِإِهَانَتِهَا وَسَبِّهَا .

ولكن لما كان هذا السب طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين ، الذي يجب تنزيهه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة، وسب وقدح - نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم يحمون لدينهم ، ويتعصبون له . لأن كل أمة، زين الله لهم عملهم ، فرأوه حسناً، وذبوا عنه ، ودافعوا بكل طريق ، حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين ، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم .

ولكن الخلق كلهم ، مرجعهم ومآلهم ، إلى الله يوم القيامة، يُعرضون عليه، وتُعرض أعمالهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة ، دليل للقاعدة الشرعية وهو أن الوسائل تعتبر بالأمر التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم ، ولو كانت جائزة ، تكون محرمة ، إذا كانت تفضي إلى الشر " انتهى من " تفسير السعدي " (ص 268) .
والله أعلم .